تعليم اللغات

ان تعليم اللغات على الطريقة التي جرى عليها الغربيون واقتبسها المشارقة قد تكون نظرية أكثر مما هي عملية فيطول أمرها ويصعب تناولها . ولطالما رأينا من يترجم اشعار شكسبير الانكليزي أو بوالو الافرنسي واذا رمته الاقدار في شوارع لندن أو باريز لا يطاوعه لسانه ان يلفظ كلمات يهتدي بها لوجه طريقه . ذلك لان الطريقة في تعلمه تلك اللغة الاجنبية هي عين الطريقة التي يستخدمها الاوربيون في تعليم الصم البكم بل عين النهج الذي ينهجه المغاربة في تعليم احدى اللغات الميتة من لاتينية ويونانية أو احدى اللغات الحية من انكليزية وافرنسية وايطالية وغيرها .

اذ يكون تدريس النحو والصرف والترجمة من الكتب هو العدة في اتقان اللغات ويسهل على المعلم ان يدرس تلميذه على هذا النحو وربما أخذ في تعليمه لغة وهو لا يحسن ان يؤلف بين جملتين صحيحتين في تلك اللغة التي عهد اليه تدريسها ولم يجود التلفظ بها فكان شغله الشاغل تعليم تلامذته أصول التصريف والاعراب والترجمة على حين قد ثبت ان الدارس قد يستظهر قواعد لغة وقوانينها ولا يبرع في اللغة نفسها . واسقم المذاهب في تعلم لغة ان يتكلم المرء بلغته في خلال تعلمه لغة غيرها .

من أجل هذا قضت الحال ان تكون دراسة قواعد الاعراب والتصريف بعد معرفة اللغة معرفة عملية لا نظرية ولا تفيد الترجمة والنقل الا اذا توفرت للطالب بادىء بدء معرفة الاساليب في اللغة الغربية . فعلى من رام ان يتكلم لغة ويكتب فيها ان يفكر في تلك اللغة ويكون شعوره شعور أهلها فيها لا ان يصيغ تراجم وينقل جملاً . فتستدعي الافكار

والانفعالات للحال مايحتاج اليه الطالب من الالفاظ التي يعبر بها عنها فتصير اللغة التي يتعلمها لغة ثانية له ولا تكون الترجمة من لغته أو اليها اذا دعت الحال حرفاً بحرف بل على طريقة تنقل بها الصورة الى التعبير عنها . وقلما يسمع المتعلم في معظم المدارس اليوم صدى اللغة التي يتعلمها ويقتضي له ان يربي عليها أذنه وذاكرته ما أمكن . وما أشبه المدرس وهو يشرح للمدارس دروسه بلغته الاصلية الايام تود ان تعلم طفلها وهو لكن تتمام قواعد الفعل الماضي وتصريف الافعال الشاذة بدلاً من ان تعنى بتعليمه ان يحسن تلفظ الكلمات الاولى التي يحاول لفظها .

وما فتيء تعلم اللغات يختلف باختلاف الاجتهاد في كل قوم ومعظمه دائر في الغرب منذ ثلاثين سنة على طريقتين وهما اما ان يقيم المتعلم زمناً في بلد اللغة التي يريد تعلمها أو ان يكون أهل الطفل في سعة من العيش فيتخذون له مؤدباً أو مؤدبة يعلمه اللغة بالعمل بين ظهراني اهله وأسرته . وقد ابتدع الاستاذ برليتز الاميركاني طريقة سهلة لتعليم اللغات جرى عليها بعضهم في أميركا وأوربا فاشتهرت عن نجاح اكيد . وطريقته عبارة عن نظر عقلي وعلم عملي وبلفظ آخر نظر في المحسوسات لا المجردات اذ اللغة عبارة عن أصوات محكية لا عن اشارات مكتوبة . والتعليم سماعي أولاً ثم نظري . ولا يعمد في طريقته الى الترجمة ولا الى النقل ولا يستخدم فيها الطالب معجماً ولا يستصحب كتاب قواعد بل يتعلم الانسان القوانين بعد لاكمال المعرفة العملية على نحو ما يتعلم الطفل لغة أبيه وأمه . وليس في تعلم القواعد نفع حقيقي الا متى عرف المرء اللغة فالقواعد تشرح اللغة شرحاً علمياً فتبحث عن علل يتأتى الاستغناء عنها بادىء بدء وقلما تنفع في تلقين

اللغة شأن مصور لايحتاج الى اتقان العلوم الطبيعية والكيماوية ليصنع صوراً شمسية بديعة .

فاللغة في الحقيقة الا صورة محكية من الحياة فانتضى في تعلمها ان يسير الانسان من نفس الحياة لا ان يعمد الى اشكال من التعبير لاتمس ولا تحرك . وقلما تتلاءم الالفاظ وصور الافكار بين لغة وأخرى كل التلاءم فالبداءة بالترجمة الحرفية من لغة الى لغة يراد تعلمها إضاعة للوقت واتعاب للذهن على غير طائل . ومن العسر المتعذر ان يرسم المرء صورتين رسماً خفيفاً على حين لايضع احداهما على الاخرى وكذلك الحال في اللغات فقد امتنع ان يحكم وضع لغتين بعضهما على بعض

واللغة بموجب هذه الاصول الجديدة عبارة عن محادثة دائمة باللغة الغريبة فكل مايقع نظر التلميذ عليه مباشرة يكون له منه مادة درس وموضوع تعلم . وذلك بتربية الاذن والحواس الصوتية . فيلقن الاستاذ تلميذه حسن اللفظ وسرعة التركيب فيدرس الافعال الأولى بالاعمال والحركات يقوم ويذهب الى اللوح الاسود فيكتب ويفتح الباب ويرفع الكتاب ويضعه ثم تعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية فيسهل عليه تأليف جمل صغيرة يتزايد كل يوم عددها بسرعة . فيكون للتلميذ بهذه الطريقة في تأليف الجملة مايلزمه من أوليات القواعد والروابط . والامم بأسرها تتعلم لغاتها بالعمل أولاً ثم بالنظر . فيتعلم المتعلم ماتمس حاجته اليه الى ان يكتب بدون غلط ويتعلم التلميذ أولا معاني الكلمات الغريبة ثم يلقن التعريفات العديدة بعد معرفة اللغة معرفة فطرية فمعرفة عقلية . ومن اللازم اللازب الاعتياد على الصور قبل القواعد . ثم يبدأ المعلم بالسؤال فيجيبه المتعلم ولا يزالان يتنقلان

من البسيط الى المركب ومن شرح المفردات الى تفسير العبارات ويكون كل ذلك باللغة التي يراد اتقانها .

واللفظ في هذه الطريقة المقام الاعلى . ولم يكن يُعنى بتقريره من قبل . والاساتذة الذين يحسنون التلفظ بلغة ما هم ممن تعلموها على الاسلوب الطبيعي في طفوليتهم أو اتقنوها باقامتهم في البلاد التي تتكلم فيها تلك اللغة . وجودة التلفظ هو روح اللغة على التحقيق . ولا تعد العبارة شيئاً مهما بلغت من الضبط متى قبح اللفظ وعجمت اللهجة الاعجمية فيه عياناً . ومن الهجنة ان التلفظ لا يكاد يصلح اذا فسد لاول أمره . وصعب على الانسان ما لم يعود.

فالطريقة المشار اليها مغايرة لطريقة الترجمة المألوفة في الاغلب اذ كل معرفة يرشد اليها المتعلم على هذه الصورة لا تحسب ناقصة الجهاز مشوشة الاسلوب . وقلما تجد الالفاظ في لغة ما يقابلها في لغة ثانية ولكل لغة اصطلاحاتها الخاصة بها ليس للترجمة معها أن تنقلها على أصلها اذ التصورات التي تمثلها لغة لا تتحد مع تصورات تمثلها الفاظ لغة أخرى اتحاداً ذاتياً معنىً ومبنىً . كتب أحد الغرباء الى فنيلون العالم الفرنسوي المشهور « ان لي منك يا مولاي اعفاء والد » يريد ان يقول « قلب والد » وقال الفونس الثاني عشر ملك اسبانيا وقد جاء قصره في يوم احتفال : «أتود ان تتعب معي نحو النافذة » يعني بذلك ان تقترب نحو النافذة .

ولو تعلم ذلك الكاتب وهذا الملك ان يتكلما الافرنسية على طريقة الاستاذ برليتز اذاً لنجيا من هذا الغلط الشائن وكان شأنهما في سهولة التعبير وجودة التصوير شأن اولئك التجار والسوقة ممن يتناولون بلاداً لا يحسنون لغتها فما هو الا قليل حتى يمرنوا على تكلمها زمناً فيحسنونها ولا إحسان

من تعلموها على دكاكة المدارس وهم يقلبون المعاجم ويتأبطون كتب نحوها وصرفها وبيانها ناقلين ناسخين مستظهرين ناسين . وطريقة برليتز هذه أن يستعمل اولاً اللغة المتعلمة خاصة وان يتابع التصور في اللغة الغريبة مباشرة بدون وساطة اللغة الاصلية وان تُعلَّم أسماء الاعيان بقوة الحس وتعلم أسماء المعاني بتتابع التصور ويدرس النحو بالامثلة والشواهد

هذا مذهب الاستاذ برليتز في اتقان ملكة اللغات وقد انتقل من نيويورك الى بلتيز عام ١٨٨٩ فاسست في هذه العاصمة أول مدرسة على تلك الطريقة وانتقل هذا المذهب في تلك السنة الى انكلترا والمانيا فاسست في كل من لندن وبرلين مدارس لهذا الغرض . وما برحت مدارسها تتكاثر في الاصقاع الاوربية حتى كانت في بدء هذه السنة ٢٤٢ مدرسة في أوربا وحدها وكلها أسفرت عن ارتقاء واقتصاد في الوقت والمال وطريقة القائمين بهذا الامر أن يكون لكل تلميذ استاذه الخاص به فيأخذ هذا يعلم تلميذه ما يقع نظره عليه في قاعة الدرس من منضدة وكرسي وكتاب وبابه ونافذة يلفظها بلغتها ولا يزال يكررها المتعلم حتى يتقن التلفظ فاذا نفدت المسميات لدى الاستاذ في الغرفة يعمد الى صور سهلة واضحة رسمت على صفحات مجموعة رسوم فما هو الا ان يتعلم التلميذ أسماء الاشياء الواقعة تحت حسه مع الالوان التي يمتاز بها كل منها ثم ينتقل الى صفات الحجم وافعال الحركات والاعداد . فاذا أنجز درس الاشياء يشرع المعلم في اختيار جمل يكون التلميذ قد عرف أكثر مفرداتها . فلا يمضي ثلاثون درساً الا وقد عرف التلميذ الافعال الشائعة في الاستعمال والمفردات التي تدخل غالباً في الاحاديث العامة وتمكن في ستين درساً من بيان فكره اصح بيان في كل ماله علاقة بمجرى

الحياة الاجتماعية العادي . ويحسن في اختيار المعلمين ان يكونوا ممن لا يعلمون لغة المتعلم

ومما يضحك ماوقع لولد أحد كبار المنشئين الفرنسويين وكان يدرس الالمانية على طريقة برليتز قيل إنه لما بلغ به العلم الى تمييز الفعل المتعدي من اللازم لم يفهم التلميذ المراد من المتعدي واللازم واخذ معلمه يشرحهما له بالاشارة تارة والتشبيه طوراً فلم يفلح وكان تلميذه معه كاعجم طمطم لا يفهم ولا يُفهم . وابى الاستاذ على تلميذه أن يفسر له شيئاً بلغته مع إلحاحه عليه في ذلك وراح الطفل الى دار أبيه وقد بلغ منه الغيظ وأنشأ يقلب كتاب نحوه يفتش عن الاشكال فاهتدى بنفسه الى حله وشكا امره الى والده فقال له : أي بني لقد احسن الاستاذ أن ابى عليك شرح ما يريد تعليمك بلغتك ولو قاله لك لغرب عن ذهنك واصبح لديك بعد زمن نسياً منسياً . أما الآن فاني على ثقة من انك لا تنسى التفرقة بين الفعل اللازم والمتعدي ولو بعد مئة سنة

قال الكاتب الذي عربنا عنه هذا المبحث وقد كاد أرباب الافكار والحصافة يجمعون على ان اللغات الحية لا تعلم كاللغات الميتة بل انه لابد في الاولى من المران على التكلم بها من اول وهلة وانه ما من لغة . مهما تراءى من صعوبتها على المتعلمين بادي بدء سواء كانت اللغة الروسية او الهندية اوالعربية أو الصينية الا ويتيسر إتقانها على طريقة برليتز في مدة تختلف باختلاف ذكاء المتعلم وصعوبة اللغة والله أعلم